دراسات فنية
مخبر الفنون والدراسات الثقافية
جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان
Algerian Scientific Journal Platform

المجلد:06 العدد: 01.**(2021)** **ص343/331**

فن الكاريكاتير: من الجذور إلى التجليات

The art of caricature: from roots to manifestations

د. إبراهيم آيت المكي

جامعة ابن زهر، أكادير، (المغرب) brahimaitelmaki@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2020/06/22
تاريخ القبول:
2020/11/08

الكلمات المفتاحية:
- ✓ كاريكاتير
- ✓ فن
- ✓ سخرية
- ✓ عصور قديمة

الملخص:

تروم هذه الورقة مقاربة فن الكاريكاتير انطلاقا من سبر جذوره الأولى التي ترتد إلى عصور سحيقة من تاريخ البشرية؛ حيث كان الإنساني القديم يتخذ من الرسم على جدران الكهوف، وسيلة للتعبير عن همومه اليومية ومواقفه مما يقع حوله من أحداث. مرورا بتفكيك طبيعة العلاقة الجامعة بين هاته الرسوم والخصائص التي تميز الكاريكاتير كما نراه اليوم على صفحات الجرائد ومواقع الانترنت. وذلك من خلال محاولة الإجابة عن سؤالين هما: **ماهي طبيعة العلاقة بين رسوم الإنسان القديم وفن الكاريكاتير كما نعرفه اليوم؟ كيف استطاع هذا الفن أن يتطور ويبسط سلطته التعبيرية داخل الفضاء العمومي؟**

Article info

Received
……..
Accepted
……..

Keywords:
- ✓ *Caricature*
- ✓ *Art*
- ✓ *Irony*
- ✓ *Antiquity*

Abstract :

This paper aims to approach the art of caricature from exploring its first roots that go back to ancient times in human history. Where the ancient human being used to draw on the walls of caves, as a way to express his daily concerns and his attitudes towards the events that occurred around him. Passing through the dismantling of the nature of the relationship between these drawings and the characteristics that characterize the caricature today as we see it on the pages of newspapers and Internet sites. And that is by trying to answer two questions: What is the nature of the relationship between ancient human drawings and caricature as we know it today? How was this art able to develop and simplify its expressive power within the public space?

المؤلف المرسل : د. إبراهيم آيت المكي

فن الكاريكاتير: من الجذور إلى التجليات

1. مقدمة:

يعتبر الفن بمختلف أنواعه: مسرح، تشكيل، موسيقى، سينما... إنتاجا خلاقا، يحتمي به الكائن البشري من ربقة الوجود ومادية الأشياء وقساوتها؛ ذلك أن الإنسان ينزع نحو توظيف الرمز للتعبير عن كينونته وإثبات وجودها داخل هذا الكون المليء بالصراعات والتناقضات والمفارقات. ولعل الرسم على جدران الكهوف من أقدم الفنون التي توسل بها الكائن البشري، منذ العصور البدائية الأولى، للتعبير عن حاجاته اليومية ومواقفه مما يجري أمامه من قضايا عامة وخاصة. ويمكن اعتبار هذه الرسومات الارهاصات الأولى لظهور فن الكاريكاتير كما نعرفه اليوم على صفحات الجرائد ومواقع التواصل الاجتماعي وغيرها من الوسائط التي تروج فيها الصور والأخبار والحكايات..

ومن ثمة فإن هاته الورقة تستهدف البحث في الأصول الأولى لفن الكاريكاتير وعلاقته بالكائن البشري قديما وحديثا؛ وذلك انطلاقا من سؤالين مركزيين: **ماهي طبيعة العلاقة بين رسوم الإنسان القديم وفن الكاريكاتير كما نعرفه اليوم؟ كيف استطاع هذا الفن أن يتطور ويبسط سلطته التعبيرية داخل الفضاء العمومي؟**

2. في تأثيل كلمة كاريكاتير

يعود أصل كلمة "**كاريكاتير**" "**Caricature**" إلى الكلمة الإيطالية "**Caricatura**"[1]، من الفعل"Caricare" ويعني: أن تحمل أكثر من الطاقة مع المبالغة في التفاصيل[2]. ويرتد أصل اشتقاق هذا الفعل في اللاتينية إلى "Carricare"[3] وتعني حمل. وهناك احتمال أن يرتبط أصل الفعل "Caricare" بالكلمة الإيطالية "carattere" والقريبة من كلمة "character "[4] الانجليزية التي تعني : الشخصية أو الملامح أو الصفة أو الميزة أو النعت أو الخصيصة[5]. ويمكن أيضا أن يرتبط بالكلمة الإسبانية "cara" التي تعني الوجه، خاصة وأن الوجه يشكل نقطة انطلاق لمعظم الرسوم الكاريكاتيرية، من رسم لأنوف غير عادية وذقون وحواجب[6]. ومهما يكن، فإن هذه المرادفات لها علاقة مباشرة بماهية لفظة "**Caricature**"، ذلك أن هذا الفن يشتغل أساسا على تضخيم عناصر الوجه وتشويه ملامحه وخصائصه، واللعب بمقاييس الجسد ونسبه بنية السخرية[7].

هناك احتمال آخر يرجع أصل اشتقاق "**Caricature**" إلى اسم الرسام الإيطالي أنيبال كراتشي "*Annibale Carracci" الذي يقال إنه أول من رسم رسما مضحكا في التاريخ الحديث[8]. ويحتاج هذا الرأي إلى مزيد من التدقيق من الناحية الاشتقاقية. ثم إن هذا الفنان لم يكن بِدَعا في الرسم الساخر، فإن كانت رسومه مضحكة وساخرة بشكل بارز من خلال التشويه والمبالغة، فقد سبقه كثير من الفنانين إلى هذه الصنعة ومنهم من عاصره، مما يجعل إمكانية اشتقاق كلمة كاريكاتير من اسمه العائلي إمكانية مستبعدة.

ذكرت موسوعة بريطانيكا "Britannica" أن أول من استعمل كلمة كاريكاتير هو موسيني "Mosini" في القرن السابع عشر وتحديدا سنة 1646م. كما كان رسام الكاريكاتير جان لورينزو برنيني " * Gian Lorenzo Bernini" أول من أدخل كلمة " Caricatura" إلى فرنسا عندما ذهب إليها سنة 1665م، وهو أيضا أول من رسم رسما كاريكاتيريا للأشخاص، في الوقت الذي يمكن اعتبار الرسام كراكشي أول من رسم البورتريه الساخر "Satirical portrait " الخاص بالفرد [9].

1.2. بين الكاريكاتير والبورتريه

يجدر بنا التمييز بين الكاريكاتير وما يعرف بـ: "**portrait-charge**" أو "**Satirical portrait** "، ويترجم إعلاميا "بالبورتريه الكاريكاتيري" أو "البورتريه الساخر"، تمييزا له عن البورتريه المعروف في الفن التشكيلي الذي يحاول تقديم ملامح الشخصية كما هي في الواقع، أي كما تقدمها الصورة الشمسية. يركز "**portrait-charge**" على إبراز العيوب الطبيعية الموجودة في ملامح الشخص، عبر تشويه هذه الملامح وتضخيمها، مع الحفاظ على عنصر التشابه الرابط بين الرسم والشخص المسخور منه[10]. بينما يتخذ الكاريكاتير الشخص ككل موضوعا للسخرية عبر تشويه العديد من أعضاء جسده حسب الحاجة والقصد من الرسم الساخر، ما يعني أن الرسم الكاريكاتيري يستوعب بالضرورة البورتريه الساخر داخل مشهد عام يتضمن عناصر أخرى؛ إذ يصور الكاريكاتير ملامح شخصية معروفة قصد السخرية منها بإبراز عيوبها الخِلقية، ويكون هذا كرد فعل على حدث ما له علاقة مباشرة بهذه الشخصية. وفي بعض الأحيان يكون الهدف إبراز العيوب الخُلقية التي ينطوي عليها الشخص؛ حيث يتوغل الرسام في شخصية المرسوم ليظهر مكوناتها من خلال التعابير والألوان[11]، ليعكس باطن الذات على ظاهرها بغية الكشف عن ذلك الشيطان الذي خبأه الملاك[12]، «فرب صورة كاريكاتورية أكثر شبها بصاحبها من صورة فوتوغرافية، ورب صورة كاريكاتورية لا نكاد نرى فيها أثرا للمبالغة »[13]، بتعبير "هنري برجسون". أي أن البشاعة التي تظهر على الملامح المحوّرة تعكس فعلا بشاعة هذه الذات وتصور حقيقة أمرها دون مبالغة، فهي في واقع الأمر ذات بشعة من الداخل والكاريكاتير إنما أظهر هذه الحقيقة أمام الناس ليروها عيانا جهارا. ولهذا فالكاريكاتير في ماهيته هو « تشويه للصورة من أجل خلق لوحة حقيقية»[14] عن الشخص على حد تعبير رونالد سيرل "Ronald Searle".

2.2. بين الكاريكاتير والكارتون:

بالإضافة إلى كلمة "كاريكاتير"، التي يمكن ترجمتها إلى اللغة العربية "**بالرسم الساخر**"[15]، نجد كلمة أخرى يتم تداولها في الساحة الإعلامية، عربيا وغربيا، وهي كلمة "كارتون" "**Cartoon**" التي تحمل عدة معانٍ؛ فقد ورد في معجم روبير أنها تعني «الرسم المعد لتركيب شريط للرسوم المتحركة»[16]. أما معجم أوكسفورد فيضيف إلى هذا المعنى معنى آخر هو أن هذه اللفظة تعني «الرسم المضحك المنشور في جريدة أو مجلة، ويتناول بشكل خاص السياسة أو الأحداث الواردة في الأخبار»[17]. وبالعودة إلى تاريخ العلاقة بين كلمة كاريكاتير وكلمة كارتون، يتضح أن بينهما ارتباطا وثيقا يلقي بظلاله على معنى كل منهما حتى اليوم؛ فإذا كانت كلمة كاريكاتير هي السباقة في الاستعمال على مستوى أوروبا، خاصة إيطاليا وفرنسا وبريطانيا، منذ القرن السابع عشر، وأصبحت أكثر انتشارا كفكرة وممارسة خلال القرن الثامن عشر، فإن كلمة كارتون أخذت تتطور عنها تدريجيا مستلهمة روحها منذ القرن الخامس عشر لتصبح هي كلمة القرن التاسع عشر في بريطانيا[18]. خاصة مع تطور الصحافة الساخرة حيث ظهر ما يعرف بـ"**Editorial cartoons**"، يمكن ترجمتها بـ"كاريكاتير الرأي"، «ويشير إلى الرسم الذي ينجزه الرسام بالاتفاق مع هيئة التحرير والذي يمثل رأي الجريدة»[19] أو موقفها من الأحداث الجارية على الساحة السياسية؛ إذ يتم الاكتفاء بوضع كاريكاتير على الصفحة الأولى من الجريدة، كما تفعل "شارلي ابدو" مثلا. أو يتم نشر الرسم رفقة افتتاحية على الصفحة الأولى. ويطلق عليه أيضا اسم "**Political cartoon**" والذي يمكن ترجمته بـ "**الكاريكاتير السياسي**" أو "**الرسم السياسي الساخر**"، وهو رسم توضيحي يعلق على حدث سياسي أو شخصية سياسية بطريقة مليئة بالمبالغة والسخرية قصد مساءلة السلطة ولفت الانتباه إلى فساد سياسي أو أو ظاهرة سياسية ما. ولهذا فقد ارتبط تعامل الكارتون بالجماعة وخصائصها بينما ارتبط تعامل الكاريكاتير بالفرد وبكل ما من شأنه أن يكرس فردية الفرد[20]، من حيث ملامحه الشخصية التي يتم استغلالها عبر التضخيم المبالغ فيه قصد انتقاد هذه الشخصية والسخرية من أفعالها باعتبارها مسؤولة عن تدبير الشأن العام. وفي هذا الصدد يرى الرسام الكاريكاتيري المغربي "العربي الصبان" أن الكلمتين تشتركان في الأسس نفسها، غير أن الكارتون يختلف عن الكاريكاتير، حسب رأيه، «فيكون الأول يوظف الأشخاص كوسيلة للتعبير عن المواقف والأحداث والوقائع، ناهجا في ذلك

الرمزية؛ على عكس الثاني الذي يصور الأشخاص لذاتهم»[21]. ويبدو أن الاستعمال الحديث لكلمة "**Cartoon**" ينزع إلى ربطها بالرسوم المتحركة، خاصة في الثقافة الفرنكوفونية، بينما تستعمل في الثقافة الانجلوساكسونية بمعناها الواسع الذي يشير إلى الرسوم المتحركة والرسوم الثابتة – بمعنى الكاريكاتير– وعلى حد سواء.

هذا بالنسبة لأصل اشتقاق كلمة كاريكاتير واستعمالها الأول في أوروبا، فماذا عن طفولة هذا الفن، أي الجذور التاريخية الأولى للكاريكاتير، وكيف تطور ليأخذ شكله الحديث؟

3. الجذور التاريخية الأولى لفن الكاريكاتير

يرتد الأصل الأول للرسوم الكاريكاتيرية إلى تلك النقوش القديمة التي اكتشفت على جدران الكهوف في العديد من الدول مثل إيطاليا وفرنسا والجزيرة العربية والصحراء الجزائرية وقبرص وأمريكا الجنوبية، تجسد هذه النقوش رسوما لكائنات بشرية ذات أجساد مشوهة، كلها أو جزء منها، عبر التضخيم المبالغ فيه لأشكالها[22]. أثبتت هذه الاكتشافات الأثرية الميل الفطري للإنسان القديم « لكسر النسب المعروفة للوجوه والحيوانات والأشياء وصوغها بأسلوب حر وجريء»[23]، لأسباب متعددة قد تكون نفسية؛ حيث إن الإنسان القديم كان يطمح لرؤية هذه الأشياء «كما تأتي إلى عينيه عبر منافذ القلق في ذاته»[24]. وقد تكون الأسباب الثاوية خلف هذه الرسوم اجتماعية أو سياسية.. لأن هذه الرسوم القديمة جريئة وساخرة، ويحتل المضمون الفكاهي فيها المكانة الأولى[25].

ولا تضطلع هذه الرسوم بوظيفة واحدة، بل تتعدد وظائفها؛ فقديما عندما يتم تصوير ملامح الآلهة كانت أشكالها تتم تبعا لما يميز هذه الملامح، فتكون إما مخيفة تبعث الرعب في النفوس وإما كوميدية ساخرة[26]. وفي حالات كثيرة لا تكون السخرية هي أساس التشويه، فقد كان البابليون قديما يصورون الأرواح الشريرة بوجوه قبيحة وعلى شكل أنصاف الحيوانات لبث الرعب في الإنسان أو للانتقام من هذه الأرواح الشريرة، أو لأغراض سحرية أو لطرد الأرواح الشريرة، أو الحماية من الأمراض[27]. والآثار الفينيقية، التي عثر عليها في سورية وقرطاج والتي يعود أقدمها إلى القرن السابع قبل الميلاد، مليئة كذلك بالأقنعة الفخارية ذات أسلوب يعتمد عناصر المبالغة الساخرة بشكل واضح؛ إذ تم تغيير مقاييس الفم والأنف والعينين[28].

1.3. في الحضارة المصرية القديمة:

ويعتبر بعض الدارسين وفي مقدمتهم "طوماس رايت" "Thomas Wright"، أن الحضارة المصرية القديمة هي الأغنى من حيث تطور مجال الرسم الساخر؛ إذ تمتاز عن باقي الحضارات بالرسوم الساخرة التي تتخذ مواضيعها من الحياة اليومية وليس من الأسطورة– وهذا ما يميز الكاريكاتير في وقتنا الراهن فهو يأخذ مواضيعه من نبض الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية– ذلك أن الرسوم التي تم اكتشافها على ورق البردي، الذي كان المصريون القدامى يستعملونه في الرسم، كانت تصور كائنات بشرية وحيوانية[29]، ففي أحد هذه الرسوم، مثلا، نجد قطا يرعى الإوز (**ينظر الشكل رقم 1 في الملحق**)، ويعود هذا الرسم إلى القرن الخامس قبل الميلاد، ونجد في رسم آخر القطط تخدم الفئران بتقديم الخمر إليها، وفي ثالث نرى الأسد يجالس التيس على لعبة تشبه الشطرنج (**ينظر الشكل رقم 2 في الملحق**).. تقدم هذه الرسوم وغيرها كائنات من الحياة اليومية للإنسان المصري القديم بطريقة مليئة بالمفارقات، فلا يمكن مثلا أن نجد القط يرعى الإوز أو يخدم الفأر أو أن نجد الأسد يجالس التيس، فهي حيوانات لا يجمع بينها كل هذا الود، بل على العكس تماما تربط بينها علاقة صراع؛ فالطرف القوي لا يرى في الآخر إلا فريسة شهية، بينما يرى الطرف الضعيف في الآخر عدوا لدودا يتربص به لينقض عليه في أية لحظة.

انبنت هذه الرسوم بالأساس على عنصر المفارقة والجمع بين الأضداد التي لا يمكن الجمع بينها في الواقع، وهو ما يعني أنها تسخر من واقع سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي ما، يعيش الناس تحت وطأته آنذاك فجاءت مثل هذه الرسوم للسخرية منه والتهكم عليه بشكل رمزي. ولهذا يمكن اعتبار هذه الرسوم القديمة اللبنة الأولى للرسم الكاريكاتيري كما نعرفه اليوم، ولعل أبرز ما يجمع بينهما هو عنصر السخرية والمفارقة والتهكم على الواقع المعيش.

فكيف أسهمت هذه الأشكال الفنية القديمة في خلق الفن التشكيلي الساخر؟

2.3. في الحضارة الإغريقية:

تعتبر الأقنعة « واحدة من المظاهر الأولى لانتقال السخرية إلى الفن التشكيلي، ونادرا ما يخلو فن شعب ما أو حضارة ما من الأقنعة التي تحمل في طريقة صناعتها عناصر السخرية أو الكوميديا»[30]. ولهذا تزامن استعمال الأقنعة مع استعمال الرسوم المشوّهة لمقاييس الجسد البشري في العديد من الثقافات، فقد كان الإغريق، مثلا، يستعملون الأقنعة كثيرا في مسارحهم، وكانوا كذلك يزيّنون الجدران الخارجية لبيوتهم بالرسوم الهزلية لآلهتهم، كما يصورون عليها آلهة أعدائهم بشكل ساخر ومليء بالتهكم[31]. ويعتبر "بوزون"* أشهر من رسم هذه الأشكال المشوهة في الثقافة الإغريقية. وقد ذكره أرسطو في العديد من مؤلفاته مثل كتاب "في الشعر" مطلقا على رسومه اسم "الفن البشع" والسيء لأنه يصور الناس «أسوأ مما هم »[32]، محذرا الفنانين الشباب من حذو حذوه[33] في طريقة الرسم. وفي المقابل كان يحثهم على الاقتداء ب"بوليغنوت"* لأنه كان يصور الناس «خيرا مما هم »[34]. ولعل ما يثير الانتباه هنا هو كون أرسطو قد ذكر هذا الكلام في معرض تشبيهه للمحاكاة بالتصوير من حيث الخير والشر والفضيلة والرذيلة[35]، ومن ثم يمكننا القول إن رأيه في تصوير الأشرار والأخيار لا يختلف عن رأيه في محاكاتهم. وقياسا عليه نزعم أن التصوير، بنوعيه، لا يختلف، من حيث الماهية، عن المحاكاة بنوعيها، الكوميديا والتراجيديا، كما عرفهما أرسطو، باعتبار الأولى: «محاكاة الأدنياء»[36] من الناس وأراذلهم؛ أي محاكاة صور أجسادهم استهزاء وبشاعة وتقبيحا، ولكن عن غير ضغينة ولا مفسدة[37]. وهذا ما يقوم به التصوير كما مارسه "بوزون" الذي عاصر أرسطو. وباعتبار الثانية: «محاكاة فعل كامل تام له عظم ما»[38].

فإذا كانت الكوميديا تحاكي الأشخاص، فإن التراجيديا تحاكي الأفعال والأعمال ولا تحاكي الأشخاص[39]، وهذا هو الفرق الجوهري بينهما، بالإضافة إلى كون الأولى تحاكي الأراذل والثانية تحاكي النبلاء والأخيار[40]. ولهذا فإن التراجيديا تشترك مع فن التصوير، كما مارسه "بوليغنوت"، في الإعلاء من شأن الناس وليس الحط من قيمتهم، خاصة وأن الغرض منها، حسب أرسطو، هو تطهير[41] الإنسان وتخليصه من الشر والرقي به في درجات الكمال، تماما كما يفعل هذا النمط التصويري الذي يقبل به أرسطو. لذلك يمجد تصوير "بوليغنوت" ويرفض تصوير "بوزون" لأنه يحط من قيمة الإنسان ويهوي به في دركات النقصان. غير أن السؤال المطروح هو: لماذا رفض أرسطو هذا النوع من التصوير وحاربه، في الوقت الذي قبل بالكوميديا ولم يشجع الناس على الابتعاد عنها؟ فهما معا يتقاسمان السخرية والبشاعة والتقبيح، بل إن الكوميديا، كما تبلورت لدى أرسطو فانيس، مليئة بالوسائل الكاريكاتيرية، مثل السخرية والتهكم والمبالغة..*

نستنتج أن المجتمع الإغريقي، كما عرف نوعين من المحاكاة الخالصة، عرف نوعين من فن التصوير:

– فن مقبول رسميا ومعترف به لأنه ينسجم مع الذوق العام أو ربما مع الساسة والحكام، ولذلك ينال من يمثله الرضى والقبول كما هو الحال مع الرسام "بوليغنوت" الذي نال حق المواطنة في أثينا تقديرا لرسومه.

– فن منبوذ من لدن من يمثلون الذوق العام والسلطة، فهم يعتبرونه منتوجا سيئا لا ينبغي الاقتداء به كما هو الحال مع الرسام "بوزون"، رغم أن أفلاطون في كتابه "Philebus" يرى أن «المضحك الملاحظ عند الأعداء مشروع وحسن ومباح، عكس المضحك في أصدقائنا؛ فهو ضحك جائر وقبيح يمزج الألم باللذة»[42]. إنه نوع من شرعنة السخرية حين تستهدف "الآخر" العدو، واستنكارها حين تستهدف "الأنا"؛ الآلهة والحكام والأعيان والمسؤولين وحراس المدينة؛ إذ لا يليق الضحك، بالنسبة لأفلاطون، بهؤلاء المسؤولين، وذلك «حتى يشب أولئك الذين نربيهم من أجل حراسة وطنهم على احتقار مثل هذا الضعف والخور»[43]، فالضحك بالنسبة له ضعف وخور، لأنه يحط من قيمة الإنسان ووجاهته الاجتماعية.

3.3. في عصر النهضة الأوروبية:

أما في عصر النهضة الأوروبية، وتحديدا ما بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر، فقد اشتهر في إيطاليا نوع من المسرح عرف ب"كوميديا الأقنعة"، وهي أقنعة تصور ملامح الوجه بطريقة كاريكاتيرية، وفيما بعد تم إرفاق هذه العروض المسرحية برسوم كانت في البداية جدية لكنها سرعان ما أصبحت هزلية[44]. إن هذا الجمع بين العرض المسرحي، الذي يوظف الأقنعة الكوميدية، والرسوم الساخرة المدعمة له لخلق جو مسرحي متكامل يمتع الجمهور، يؤكد وجود علاقة عضوية بين الأشكال التعبيرية القديمة، بدءا من أقنعة ثقافات ما قبل الميلاد، الشرقية والغربية، ومنحوتاتها ورسومها التشويهية، مرورا بمسرح الأقنعة في عصر النهضة خاصة في إيطاليا، وبين الكاريكاتير كما تطور فيما بعد. ولعل هذا ما دفع أحد الباحثين إلى القول بأن «الأدب الساخر هو الرحم القانوني للتشكيل الساخر»[45].

4.3. في الثقافة العربية الإسلامية:

وإذا كان الأدبي والتشكيلي قد ترافقا في ثقافات عدة، فإن الثقافة العربية الإسلامية قد شذت عن ذلك رغم امتلاء نصوصها الشعرية والسردية، من العصر العباسي حتى العصر الأندلسي[46]، بمظاهر السخرية من العيوب الخِلقية والخُلقية[47] عبر الوصف الهادف إلى إبراز مظاهر القبح بغرض الهجاء أو السخرية أو التهكم أو الضحك. لم يرافق هذا الإنتاج الأدبي العربي الغزير حركة تشكيلية تجسد ما تم التعبير عنه شعرا أو نثرا، باستثناء تلك المنمنمات التي رافقت مقامات الحريري والتي رسمها "يحيى بن محمود الواسطي" في ثلاثينيات القرن الثالث عشر الميلادي لتكون مجرد انعكاس لشخصيات المقامات وأحداثها. مع مرور الوقت أصبحت هذه المنمنمات مستقلة بذاتها[48] عن النص الذي أنتجت على هامشه. غير أن هذه المنمنمات لا تطغى عليها روح السخرية والتشويه والمفارقة وغيرها من الخصائص التي تشكل جوهر الكاريكاتير. ويمكن إرجاع غياب هذه الحركة التشكيلية إلى عدة أسباب منها ما هو ديني وما هو ثقافي وما هو سياسي[49]. ولعل هذا ما يبرر تأخر ظهور الكاريكاتير في الثقافة العربية الإسلامية قديما وحديثا مقارنة مع تاريخ انتشاره لدى الغرب خاصة في العصر الحديث.

4. من الفنون التعبيرية القديمة إلى التجليات الأولى للكاريكاتير

يمكننا اعتبار الفنون التعبيرية القديمة، السالفة الذكر، إرهاصات أولى لظهور فن الكاريكاتير كما هو اليوم على صفحات الجرائد ومواقع التواصل الاجتماعي، ذلك أن هذه الفنون القديمة مهدت الطريق أمام ظهور هذا الفن. والدليل على هذا وجود مجموعة من الخصائص المشتركة بين هذه الفنون القديمة والرسم الكاريكاتيري كما هو اليوم، ولعل أهم هذه الخصائص هي:

– تشويه ملامح الوجه بشكل خاص عن طريق تضخيم مكوناته الأساسية: الأنف، العينان، الفم، الأذنان...

- المزج بين أعضاء الكائن البشري وأعضاء بعض الحيوانات. (يشترك في هذه الخاصية الأصل الأول للكاريكاتير مع "الغروتيسك" "Grotesque"[50]. **(ينظر الشكل رقم 3 في الملحق)**
- الاحتفاء بالقبح والبشاعة وإبرازهما للعيان.
- السخرية من الخصوم السياسيين. **(ينظر الشكل رقم 4 في الملحق)**
- التهكم على الخصوم.
- هجاء الخصوم.
- الانتقام من الخصوم والأعداء.
- كشف العيوب الخِلقية والخُلقية.
- توظيف المفارقة.
- خلق جو يسوده الضحك المر الذي يشبه البكاء.
- التمرد على السلطة.
- النقد السياسي والاجتماعي.
- تصوير الآلهة.
- تصوير اليومي.
- المزج بين المقدس والمدنس.
- البساطة في التعبير مقارنة مع باقي الفنون التشكيلية الأخرى.

شكلت هذه الخصائص اللبنة الأولى التي تأسس عليها الكاريكاتير باعتباره فنا قائم الذات فيما بعد، فقد تجاوز الكاريكاتير مرحلة الطفولة المبكرة وشق طريقه نحو التبلور والوجود المستقل عن الأنماط التعبيرية الفنية القديمة التي ترتد إلى ما قبل الميلاد بمئات القرون، لينبعث من حطام الأقنعة المسرحية القديمة وفخار تعاويذ السحرة ونقوش الصخور ورسوم ورق البردي إلى الساحة الفنية والسياسية، فنا قائم الذات* بدءا من عصر النهضة الأوروبية حتى يوم الناس هذا، محافظا على كل مقوماته التعبيرية والفنية الساخرة، وناسجا روابط عضوية مع كل الحقول المرتبطة بالشأن العام وعلى رأسها الحقل السياسي.

5. خاتمة:

نستنتج مما سبق، أن الكاريكاتير خاض مسيرة طويلة بدأت منذ ما قبل الميلاد بعدة قرون؛ حيث كان وسيلة بيد الإنسان القديم يعبر من خلالها عن هواجسه وآماله وآلامه، متخذا المبالغة والتشويه سمة أساسية لرسم الملامح والأجساد على جدران الكهوف والصخور والمعابد.. حتى إذا جاء عصر النهضة الغربية الذي أعطى دفعة قوية لهذا الفن وضمن له استقلاله عن الفنون الأخرى، ولج الكاريكاتير الساحة الفنية كتعبير قائم الذات يمتطي السخرية من أجل التغيير، طارقا مواضيع عدة، الاجتماع والسياسة والاقتصاد والثقافة... ومن ثم استطاع أن يدخل عالم الصحافة

من الباب الواسع، نظرا لقدرته على مواكبة الأحداث الجارية وتقديم وجهة نظر حولها. ولقد بلغ شأو الكاريكاتير أن جعل الصحافة، بمختلف وسائطها، غير قادرة على الاستغناء عنه في موادها الإخبارية المتنوعة.

6. ملاحق:

شكل رقم: 1

Thomas Wright: Histoire de la caricature, p. 6.

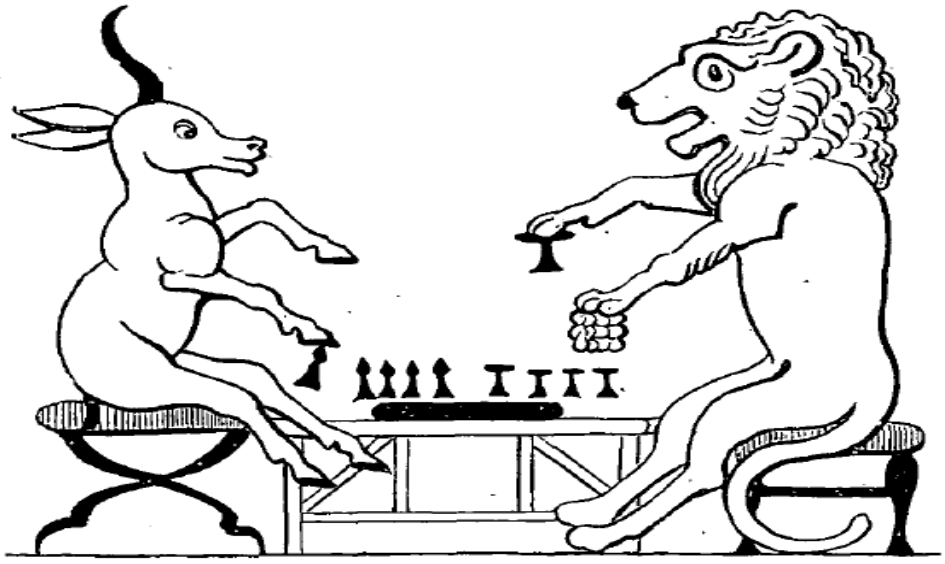

شكل رقم: 2

Thomas Wright: Histoire de la caricature, p. 8.

شكل رقم: 3

Thomas Wright: Histoire de la caricature, p. 65.

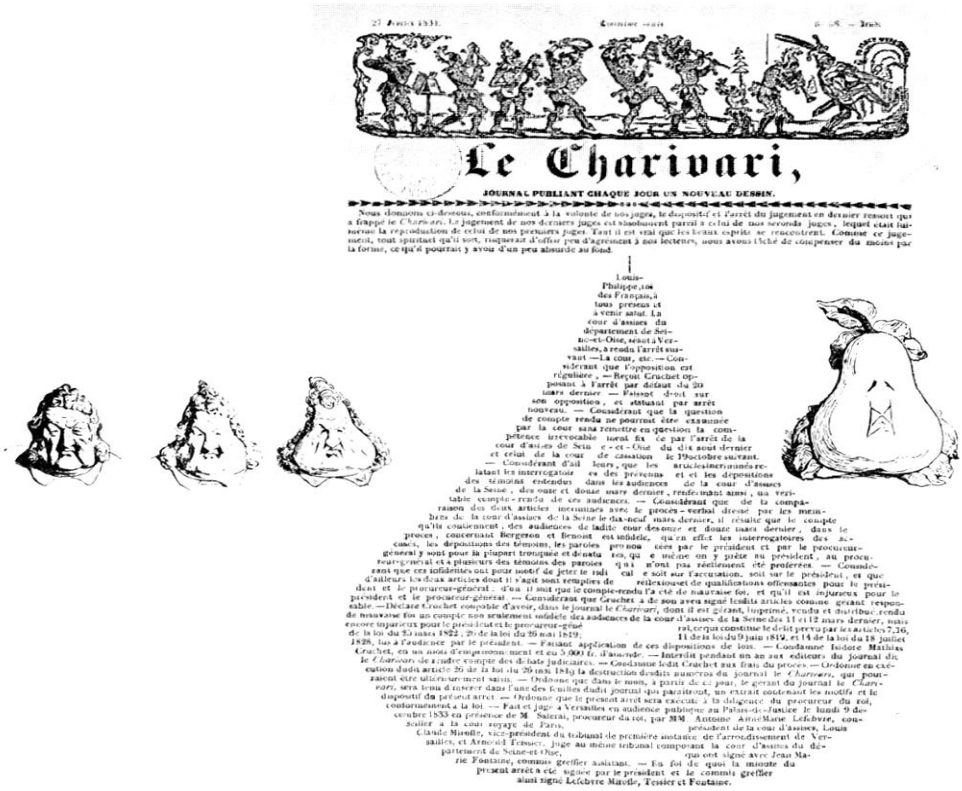

Le Charivari,

JOURNAL PUBLIANT CHAQUE JOUR UN NOUVEAU DESSIN.

Texte du jugement qui frappa Le Charivari paru le 27 février 1834

شكل رقم: 4

Suzy Lévy : Les mots dans la caricature, p. 67.

7. الهوامش:

1 - le petit robert, Montréal, Canada, 1986, p. 256.
2 -Winslow Ames : "Caricature and cartoon, GRAPHIC ARTS", Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/art/caricature-and-cartoon
3 -le petit robert, p. 256.
4 -Winslow Ames : op. cit.

تبنى هذا الرأي العديد من الدارسين المهتمين بالكاريكاتير، ينظر:
- شوقية هجرس : فن الكاريكاتير، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط. 1، 2005، ص. 30.
- طلال فهد الشعشاع: فن الكاريكاتير : دراسة نظرية وتطبيقية، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط. 1، 2011، ص. 21.

5 - Oxford Advanced, Oxford university press, 6th edition, 2000, p. 196.
6 - Winslow Ames : op. cit.
7 - Oxford Advanced, p. 177.

*- رسام إيطالي من أصل بولوني، يعتبر من رسامي عصر النهضة، ولد سنة 1560م في بولونيا ومات سنة 1609 في روما.

8- عبد الكريم غريب: العربي الصبان، الكاريكاتيرست وفنان الرسم الساخر، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1، 2009، ص. 16.

*- نحات باروكي وفنان إيطالي شهير، عاش في القرن السابع عشر، ولد في مملكة نابولي في السابع من دجنبر 1598 ومات في روما في الثامن والعشرين من نونبر 1680. من أشهر أعماله تمثال نشوة القديسة تريزا وقد أنتجه بين سنة 1647 و سنة 1651. ينظر:
-Howard Hibbard: "Gian Lorenzo Bernini, ITALIAN ARTIST", Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/biography/Gian-Lorenzo-Bernini

9 - Winslow Ames : op. cit.
10 - Suzy Lévy : "Les mots dans la caricature", In: *Communication et langages*, n°102, 4ème trimestre 1994, P. 62.

11- عبد الحليم حمود: الكاريكاتور العربي والعالمي، دار الأنوار، بيروت، ط. 1، 2004، ص. 125.
12- هنري برجسون: الضحك، بحث في دلالة المضحك، ترجمة: سامي الدروبي وعبد الله عبد الدائم، دار العلم للملايين، القاهرة، ط. 3، 1983، ص. 31.
13- نفسه، ص. 31.

14 - Ronald Searle : L'Offenbach Post, 2 février 1974. Cf. planche 19.

ذكرته: Suzy Lévy : op. cit. p. 62.

15- ينظر: - عبد الكريم غريب: مرجع سبق ذكره، ص. 16.
وطلال فهد الشعشاع: مرجع سبق ذكره، ص. 20.

16 - le petit robert, p. 260.
17 - Oxford Advanced, p. 179- 180.
18 - Winslow Ames : op. cit.

19- عبدالكريم سعدون: "ملاحظات في طبيعة الرسم الكاريكاتيري"، مجلة تموز، عدد 54، شتاء 2012، ص.22.

20 - Winslow Ames : op. cit.

21عبد الكريم غريب: مرجع سبق ذكره، ص. 16 و17.
22- ممدوح حمادة: فن الكاريكاتير، من جدران الكهوف إلى أعمدة الصحافة، دار عشتروت للنشر، دمشق، 1999، ص. 9 و10.
23- عبد الحليم حمود: مرجع سبق ذكره، ص. 9.
24- سعيد بنكراد: "الصورة: وهم الاستنساخ واستيهامات النظرة"، علامات، عدد 32، 2009، ص. 37.
25- ممدوح حمادة: مرجع سبق ذكره، ص. 11.
26- نفسه، ص. 14.
27- نفسه، ص. 14.
28- ممدوح حمادة: مرجع سبق ذكره، ص. 14 وما بعدها.

29- Thomas Wright: Histoire de la caricature et du grotesque dans la littérature et dans l'art, Traduction d'Octave Sachot, A. Delahays libraire-éditeur, Paris, 2eme éd. 1875, p. 3-4.

30- ممدوح حمادة: مرجع سبق ذكره، نفسه، ص. 17.
31- نفسه، ص. 25.
*- فنان إغريقي، اشتهر برسم الناس بشكل قبيح، ومن المرجح أن تكون رسومه ذات طابع سياسي ساخر من الخصوم السياسيين، لأنه عاش في مرحلة عرفت بالصراع السياسي الحاد وهي العقد الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد. ينظر: ممدوح حمادة: مرجع سبق ذكره، ص. 202 و203.
32- أرسطوطاليس : في الشعر، نقل أبي بشر متى بن يونس القنائي من السرياني إلى العربي، حققه مع ترجمة حديثة: شكري محمد عياد، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967، ص. 32.
33- ممدوح حمادة: مرجع سبق ذكره، ص. 26.
*- رسام يوناني، عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، وكان من جزيرة فاسوس، وقد منح حق المواطنة في أثينا تقديرا لرسومه. انظر: ممدوح حمادة: مرجع سبق ذكره، ص. 203.
34- أرسطوطاليس : مرجع سبق ذكره، ص. 32.
35- نفسه، ص. 32.
36- نفسه، ص. 44.
37- نفسه، ص. 45.
38- نفسه، ص. 58.
39- نفسه، ص. 52.
40- نفسه، ص. 46.
41- نفسه، ص. 48.
*- لعل ما يؤكد وجود علاقة بين الكوميديا والكاريكاتير ما قام به جون ميشيل غالي؛ إذ حاول استقراء وسائل الكاريكاتير التي وظفها المسرحي الساخر اليوناني أرسطو فانيس، مثل السخرية والنقد والمبالغة...ينظر:
- Jean-Michel Galy : "Les moyens de la caricature dans les comédies d'Aristophane", In: Le théâtre grec antique : la comédie. Actes du 10ème colloque de la Villa Kérylos à Beaulieu-sur-Mer les 1er & 2 octobre 1999. Paris : Académie des Inscriptions et Belles Lettres, 2000.
42- أحمد الشايب: الضحك في الأدب الأندلسي، دراسة في وظائف الهزل وأنواعه وطرق اشتغاله، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط. 1، 2004، ص. 18.
43- أفلاطون: الجمهورية، ترجمة: فؤاد زكريا، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1965، الكتاب 3، ص. 388.
44- ممدوح حمادة: مرجع سبق ذكره، ص. 43-44.
45- نفسه، ص. 42.
46- أحمد الشايب: مرجع سبق ذكره، ص. 76 وما بعدها.
47- نفسه، ص. 156 وما بعدها.
48- عبد الفتاح كيليطو: لسان آدم، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، ط. 1، 1995، ص. 80.
49- نزار شقرون : معاداة الصورة، في المنظورين الغربي والشرقي، مؤسسة الانتشار الأدبي، بيروت، ط. 1، 2009، ص. 57 وما بعدها.
50- رشيد وديجى:" في مفهوم الغروتيسك"، مجلة تموز، العدد 56 ، صيف 2013، ص. 8.
تجمع كلا من الكاريكاتير والغروتيسك علاقة ترتد جذورها الأولى إلى ما قبل التاريخ وتحديدا ما عثر عليه من رسوم على الكهوف والصخور والآنية الفخارية...، لكن كلا منهما نحت طريقا مستقلا عن الآخر فيما بعد. ولهذا فقد ربطت بعض المعاجم بين الكاريكاتير والغروتيسك والبيرلسك "burlesque" أيضا. ينظر:
- Oxford, Oxford university press, 1992, volume 1, p. 286.
*- بدأ الانتقال من الممارسات الابداعية ذات الطابع الديني –السحري إلى الفن بالظهور عندما بلغ المجتمع مستوى من الإنتاج المادي مكنه من التخلص نسبيا من التأثر المباشر بالقوى العفوية للطبيعة، فقد بدأ المجتمع يدرك سلطانه الحقيقي على هذه القوى ومن ثم ضرورة إزالة التأثير الوهمي-السحري عنها. للتوسع ينظر: غيورغي غاتشف: الوعي والفن: دراسات في تاريخ الصورة الفنية، ترجمة: نوفل نيوف، عالم المعرفة، الكويت، عدد: 146، فبراير 1990، ص. 88 وما بعدها.

8. المصادر والمراجع:

1.8. المؤلفات:

- باللغة العربية:

- أفلاطون، (1965)، الجمهورية، ترجمة: فؤاد زكريا، القاهرة، دار الكتاب العربي، الكتاب 3.

- برجسون، هنري، (1983)، الضحك، بحث في دلالة المضحك، ترجمة: سامي الدروبي وعبد الله عبد الدائم، القاهرة، دار العلم للملايين، ط. 3.
- حمادة، ممدوح، (1999)، فن الكاريكاتير، من جدران الكهوف إلى أعمدة الصحافة، دمشق، دار عشتروت للنشر.
- حمود، عبد الحليم، (2004)، الكاريكاتور العربي والعالمي، بيروت، دار الأنوار.
- الشايب، أحمد، (2004)، الضحك في الأدب الأندلسي، دراسة في وظائف الهزل وأنواعه وطرق اشتغاله، الرباط، دار أبي رقراق للطباعة والنشر.
- الشعشاع، طلال فهد، (2011)، فن الكاريكاتير : دراسة نظرية وتطبيقية، بيروت، مؤسسة الانتشار العربي.
- شقرون، نزار، (2009)، معاداة الصورة، في المنظورين الغربي والشرقي، بيروت، مؤسسة الانتشار الأدبي.
- طاليس، أرسطو، (1967)، في الشعر، نقل أبي بشر متى بن يونس القنائي من السرياني إلى العربي، حققه مع ترجمة حديثة: شكري محمد عياد، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.
- غاتشف، غيورغي، (1990)، الوعي والفن: دراسات في تاريخ الصورة الفنية، ترجمة: نوفل نيوف، عالم المعرفة، الكويت، عدد: 146، فبراير.
- غريب، عبد الكريم، (2009)، العربي الصبان، الكاريكاتيرست وفنان الرسم الساخر، الدار البيضاء، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة.
- كيليطو، عبد الفتاح، (1995)، لسان آدم، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر.
- هجرس، شوقية، (2005)، فن الكاريكاتير، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.

- باللغة الأجنبية:

- Galy, Jean-Michel, 1999, Les moyens de la caricature dans les comédies d'Aristophane", In: Le théâtre grec antique : la comédie. Actes du 10ème colloque de la Villa Kérylos à Beaulieu-sur-Mer les 1er & 2 octobre, Paris : Académie des Inscriptions et Belles Lettres, 2000.
- le petit robert, 1986, Montréal, Canada.
- Oxford Advanced, 2000, Oxford university press, 6th edition.
- Wright, Thomas, 1875, Histoire de la caricature et du grotesque dans la littérature et dans l'art, Traduction d'Octave Sachot, A. Delahays libraire-éditeur, Paris, 2eme éd.

2.8. المقالات:

- باللغة العربية:

- بنكراد، سعيد، 2009، الصورة: وهم الاستنساخ واستيهامات النظرة"، علامات، عدد 32.
- سعدون، عبدالكريم، شتاء 2012، ملاحظات في طبيعة الرسم الكاريكاتيري، مجلة تموز، عدد 54.
- وديجى، رشيد، صيف 2013، في مفهوم الغروتيسك، مجلة تموز، العدد 56.

- باللغة الأجنبية:

- Lévy, Suzy, 1994, Les mots dans la caricature, In: *Communication et langages*, n°102, 4ème trimestre, pp. 59-67.

3.8. المواقع الإلكترونية:

- Ames, Winslow : "Caricature and cartoon, GRAPHIC ARTS", Encyclopedia Britannica.
https://www.britannica.com/art/caricature-and-cartoon
(Le : 20/ 06/ 2021)
- Hibbard, Howard: "Gian Lorenzo Bernini, ITALIAN ARTIST", Encyclopedia Britannica.
https://www.britannica.com/biography/Gian-Lorenzo-Bernini
(Le : 20/ 06/ 2021)